هكذا حج الصالحون

كان عمر بن الخطاب يجعل من الحج فرصة للقيا عماله ومحاسبتهم، قال عطاء بن أبي رباح: كان عمر يكتب إلى عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قام فقال: أيها الناس إني استعملت عليكم عمالي هؤلاء ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ولا من أعراضكم، ولكن استعملتهم ليحجزوا بينكم.. إلى آخر ما قال.

وعن المعرور بن سويد قال: خرجنا حجاجا مع عمر بن الخطاب فعرض لنا في بعض الطريق مسجد فابتدره الناس يصلون فيه، فقال عمر: ما شأنهم؟ فقالوا: هذا مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال عمر: أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم مثل هذا حتى أحدثوها بيعا، فمن عرضت له فيه صلاة فليصل، ومن لم تعرض له فيه صلاة فليمض.

وقبل عمر بن الخطاب الحجر ثم قال: أما والله لقد علمت أنك حجر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك. أخرجه البخاري.

وقدم المهدي مكة وسفيان الثوري بمكة، فدعاه فقال له سفيان ـ وقد رأى ما قد هيأه للحج ـ: ما هذه الفساطيط؟ ما هذه السرادقات؟ اتق الله واعلم أن عمر بن الخطاب حج فأنفق ستة عشر دينارا، وفي رواية: فسأل كم أنفقنا في حجتنا هذه؟ فقيل: كذا وكذا دينارا ـ ذكر شيئا يسيرا ـ فقال: لقد أسرفنا.

وقال سفيان الثوري: أدخلت على المهدي بمنى فقلت له: اتق الله فإنما أنزلت هذه المنزلة، وصرت في هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعا، حج عمر بن الخطاب فما أنفق إلا خمسة عشر دينارا، وكان ينزل تحت الشجر فقال لي: أتريد أن أكون مثلك؟ قلت: لا تكن مثلي، ولكن كن دون ما أنت فيه، وفوق ما أنا فيه فقال لي: اخرج.

وعن طلق بن حبيب قال: قال عمر: يا أهل مكة اتقوا الله في حرم الله أتدرون من كان يسكن هذا البيت؟ كان به بنو فلان فأحلوا حرمته فهلكوا، وكان به بنو فلان فأحلوا حرمته فهلكوا، حتى ذكر ما شاء الله من قبائل العرب أن يذكر ثم قال: لأن أعمل عشر خطايا بغيره أحب إلي من أن أعمل واحدة بمكة.

وسئل الحسن البصري رحمه الله تعالى: ما الحج المبرور؟ قال: أن تعود زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة.

وقال سفيان بن عيينة: حج علي بن الحسين رضي الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي، فقيل له: لم لا تلبي؟ فقال: أخشى أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك. فلما لبى غشي عليه ووقع عن راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه.

وقال الحسن بن عمران ـ ابن أخي سفيان بن عيينة ـ: حججت مع عمي سفيان آخر حجة حجها سنة سبع وتسعين ومائة فلما كنا بجمع وصلى استلقى على فراشه، ثم قال: قد وافيت هذا الموضع سبعين عاما أقول في كل سنة: اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان، وإني قد استحييت من الله من كثرة ما أسأل ذلك، فرجع فتوفي في السنة الداخلة يوم السبت أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة ودفن بالحجون.. وتوفي وهو ابن إحدى وتسعين سنة.

وقال علي بن الموفق: حججت ستين حجة، فلما كان بعد ذلك جلست في الحجر، أفكر في حالي وكثرة ترددي إلى ذلك المكان، ولا أدري هل قبل مني حجي أم رد ثم نمت فرأيت في منامي قائلا يقول لي: هل تدعو إلي بيتك إلا من تحب قال: فاستيقظت وقد سرى عني.

وكان عبدالله بن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو فيقولون: نصحبك يا أبا عبدالرحمن، فيقول لهم: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها، ثم يكتري لهم ويخرجهم من مرو إلى بغداد، ولا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ، فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طرفها؟

فيقول: كذا، ثم يخرجهم إلى مكة فإذا وصلوا إلى مكة وقضوا حجهم قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة؟

فيقول: كذا وكذا فيشتري لهم، ثم يخرجهم من مكة فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فإذا صاروا إلى مرو جصص أبوابهم ودورهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة وكساهم فإذا أكلوا وشربوا دعا بالصندوق ففتحه، ودفع إلى كل رجل منهم صرة بعد أن كتب عليها اسمه.

الحج مدرسة خلقية ونفسية واجتماعية

الرفاعي: تدريب عملي على مجاهدة النفس حتى تستقيم على طاعة الله

الداعية سيد الرفاعي

على الحاج التجرد من كل مغريات الدنيا ومفاسدها حتى يتحقق الغرض المنشود

الحج في الإسلام كان ولايزال ينبوع الخير، تهفو إليه النفوس وتستقر في رحابه القلوب المتلهفة، وفي ظلاله تستريح النفوس المجهدة، فحول بيت الله تخفق الأفئدة شوقا وأملا في المثابة والأمن، وبه تستشعر الأرواح الهائمة معاني السعادة الحقة والإشراق الإلهي الفياض.

إن مناسك الحج مدرسة يتعلم فيها الحاج آدابا خلقية ونفسية واجتماعية، عن تلك الآداب يحدثنا الداعية سيد عبدالله الرفاعي، يقول الداعية الإسلامي سيد الرفاعي: إن الحج مؤتمر عظيم يجتمع فيه المسلمون من كل مكان، وفيه من الآداب التي يجب أن يتحلى بها الحاج حتى يعود نفسه عليها كي يستفيد من حجه ويربي نفسه، ومن الآداب التي يجب على الحاج أن يتحلى بها: الابتعاد عن الرفث، أي الجماع، ومقدماته الفعلية والقولية مثل الكلام المتضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه والفحش والقول القبيح.

ويجب على الحاج ألا يخرج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب المعاصي ومنها السباب وفعل محظورات الإحرام، وألا يجادل ويحاور وينازع ويخاصم وأن يبتعد عن المراء والتنابز بالألقاب وكل ما يؤدي إلى التنازع والتباغض والاختلاف.

ومن الجدال الملاحظ في زماننا هذا ما يحدث بين الحجاج من نزاعات وخصومات على أتفه الأسباب، وبعضهم يحول الحج إلى هتافات ومظاهرات وشعارات وإيذاء وترويع للحجاج وعدم مراعاة لحرمة الحرم والإحرام وحرمة تلك الأيام المباركة، إن الواجب على الحاج أن يتجرد من كل مظاهر الدنيا ومغرياتها ومفاسدها ويتطهر من الذنوب والسيئات حتى يتحقق الغرض المنشود من الحج وهو تهذيب النفس واشعارها بالعبودية لله الواحد الأحد، فالواجب على الحاج أن يترك الأقوال والأفعال القبيحة ويسارع إلى الأعمال الصالحة فإن الحسنات تضاعف في تلك الأماكن المقدسة.

روى الإمام أحمد والترمذي عن رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة».

وكان السلف يكثرون من الحج على ما فيه من تعب ومشقة ولا يتأخرون عن حضور موسمه الأعظم حتى ان المجاهدين منهم إذا جاء موسم الحج شهدوه..

الحج جهاد

وذلك لأن الحج يشارك الجهاد في كثير من الأمور كترك الوطن والأهل والولد والمال وتجشم المشاق، والمسلم المستطيع يجب ان يكثر من الحج والعمرة ولا يطيل المدة، وحين تمر سنوات دون ان يهفو قلبه الى المسجد الحرام فإن في هذا هجر لبيت الله الحرام، فعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عبدا صححت له جسمه ووسعت عليه في المعيشة تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد عليّ إنه لمحروم»، وهذه نماذج من بعض من ثبت عنهم الإكثار من الحج من السلف رضوان الله عليهم، وفي زمانهم كان الحج أكثر مشقة وأصعب مما هو عليه الآن، منهم «الأسود بن يزيد النجفي» الفقيه الزاهد عالم الكوفة حج 80 حجة وعمرة ولم يجمع بينهما.

ومنهم «عطاء بن ابي رباح» مفتي أهل مكة وإمام أهل زمانه حج اكثر من 70 مرة.

ومنهم «عمرو بن ميمون» كان عابدا ورعا كثير قيام الليل حج واعتمر 100 مرة.

ومنهم «سعيد بن المسيب» فقيه المدينة النبوية حج 40 حجة.

ومنهم «سفيان بن عيينة» محدث الحرم الشريف حج 70 حجة.

ومنهم «عبدالله بن وهب» أحد الأئمة الأعلام حج 36 حجة.

وهناك الكثير أمثال هؤلاء، فالعجب كل العجب من الذين ينكرون الإكثار من الحج والعمرة الذين يتعللون بالزحام وكثرة الناس وغيرها من الأعذار الواهية، فيجب ان تهفو القلوب الى بيت الله حبا وشوقا كلما اقترب موعد الحج، وان يرجع الناس إليه كل عام ولا يقضون فيه وطرا، بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا اشتياقا إليه.

المغفرة والرحمة

إن الحج أفضل رحلة يرجع بعدها المسلم كما ولدته أمه وقد غفر الله له ذنوبه، فما بال الذين ينتقدون كثرة الحج لا ينظرون الى الذين يسافرون الى بلاد الكفر في كل وقت وحين، فما ان تحين فرصة حتى يسارعوا الى هذه البلاد التي ينفقون فيها الأموال الشيء الكثير، فأيهما أفضل رحلة تغفر فيها الذنوب والخطايا أم رحلة تخسرون فيها أموالكم وتضيعون أوقاتكم وتزدادون ذنوبا؟!

قال رسول الله ﷺ: «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

أما من ينادي بالإنفاق على المرضى وغيرهم من المحتاجين، فذلك له وجوه أخرى من الصدقات والزكوات وغيرها من مشاريع الخير الكثيرة، أما تكرار الحج فلا مثيل له أبدا فإنه يغسل المسلم ويطهره من الذنوب ويعود الى أهله طاهرا نقيا، فأخلصوا النية لله وبادروا بأداء مناسك الحج.

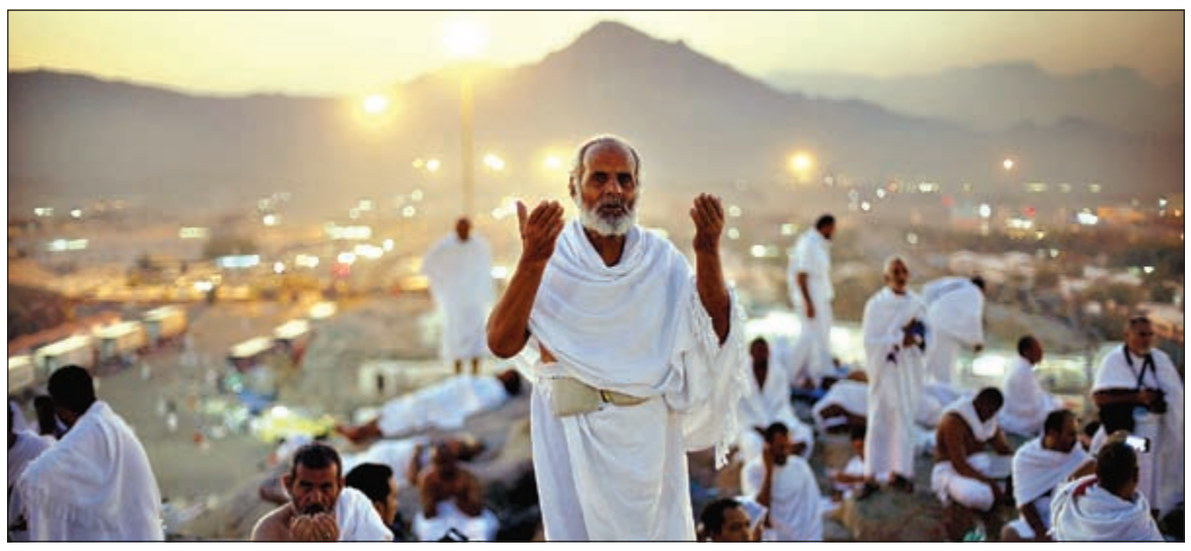

محظورات الإحرام

من نوى الدخول في الإحرام، حرمت، ومنعت عليه جملة من الأمور منها:

ستر الرأس، وذلك لنهيه ﷺ: «لا يلبس الثوب، والعمائم، ولا السراويل، ولا البرانس» الحديث، لذلك اتفق علماؤنا على تحريم تغطية المحرم رأسه، أخذا من تحريم لبس العمائم، والبرانس، وعند الاحناف، والحنابلة يحرم بما يقصد به التغطية عادة، من عمائم، وقلنسوة، وغيرها، وأما غير ذلك، مما لا يقصد به تغطية الرأس، فإنه لا يحرم عندهم، فلو حمل متاعه على رأسه، فإن هذا جائز عندهم. وبهذا قال الشافعية ايضا ان لم يقصد به ستر الرأس.

د.ناظم المسباح

ويحرم عليه ايضا حلق أو قص الشعر، والدليل على ذلك، قوله تعالى في سورة البقرة: (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك).

والآية ذكرت الحلق، وغيره من تقصير مثله لأنه ترفه، فيقاس عليه، ويأخذ نفس الحكم، وكذلك أخذ الشعر من أي موضع في الجسم.

أيضا قص الظفر قياسا على حلق الشعر، لأن في قصه ترفها، وإزالة للشعث.

ومس الطيب بعد الاحرام، وأما ما بقي من رائحة الطيب الذي تطيب به قبل نية الاحرام فهذا لا يضر بقاؤه، قال ﷺ في الرجل المحرم الذي قتلته دابته: «لا تقربوه طيبا، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا» وفي الحديث دليل على أنه يحرم على المحرم أن يمس الطيب، ولا يجوز الاحرام بملابس الاحرام المعطرة. وذلك لقوله ﷺ: «ولا تلبسوا من الثياب شيئا مسه الزعفران او الورس» والورس: نبت اصفر طيب الريح يصبغ به.

ايضا لبس المخيط، والمخيط هو ما يفصل على الاعضاء من سراويل، وقمص، وقلنسوة، وفانيلة، وغيرها، وذلك لقوله ﷺ: «لا يلبس القمص، ولا العمائم، ولا السراويل، ولا البرانس، ولا الخفاف، إلا أن لا يجد نعلين فليلبس خفين، وليقطعهما اسفل من الكعبين».

ولكن من لم يجد نعلين، فإنه يجوز له أن يلبس الخفين، ولا حاجة لقطعهما، لأن القطع نسخ، وكذلك من لم يجد ازارا، فإنه يجوز له ان يلبس السراويل، قال ﷺ: «من لم يجد ازارا فليلبس السراويل، ومن لم يجد نعلين فليلبس الخفين».

ويحرم على المحرم ايضا صيد البر، وهذا ثابت في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، واجماع الأمة، قال تعالى في سورة المائدة: (يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم)، وقال تعالى في السورة نفسها: (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما).

والذي يشمله التحريم في صيد البر هو تحريم قتله، وهذا يدل على صريح النص: (يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم)، كما يشمل تحريم ايذائه، أو الاستيلاء عليه، ككسر قوائمه، او جناحيه، أو نتف ريشه، أو جز صوفه، أو تنفيره، او أخذه، وهذا ما تفيده الآية: (وحرم عليكم صيد البر)، ومما يشهد كذلك لما قلناه القياس على حرمة تنفير صيد الحرم، قال ﷺ: «ان هذا البلد حرمه الله، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته الا من عرفها» قال أهل العلم: «فإذا حرم تنفير صيد الحرم، وجب ان يحرم في الاحرام.

كما يشمل المساعدة على صيده بأي وجه من الوجوه، كالدلالة عليه، او الإشارة اليه، أو إعارة وسيلة صيده للصياد، وهذا يشهد له حديث ابي قتادة حين احرم اصحابه، ولم يحرم، ورأى حمار وحش، قال ابو قتادة: «فأسرجت فرسي، وأخذت رمحي، ثم ركبت فسقط مني سوطي، فقلت لاصحابي ـ وكانوا محرمين: ناولوني السوط، فقالوا: والله لا نعينك عليه بشيء، فنزلت فتناولته، ثم ركبت» وفي رواية أخرى: «فنزلوا، فأكلوا من لحمها، وقالوا: أنا كل لحم صيد، ونحن محرمون؟! فحملنا ما بقي من لحمها. قال: أمنكم احد أمره ان يحمل عليها، أو اشار اليها؟ قالوا: لا قال: «فلكوا ما بقي من لحمها».

كما ان في الحديث فائدة، وهي: إذا صاد غير محرم لنفسه صيدا يحل للمحرم ان يأكل منه، وهذا مذهب جمهور أهل العلم، منهم المالكية، والشافعية، والحنابلة، وبه قال اسحق بن راهويه، وابو ثور، وابن عبدالبر.

الحجيج وماء زمزم

قال ابن عيينة: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اللهم إني أشربه لظمأ يوم القيامة.

وقال عكرمة: كان ابن عباس رضي الله عنهما إذا شرب من ماء زمزم قال: اللهم علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء.

قال الحسن بن عيسى: رأيت ابن المبارك دخل زمزم فاستقى دلوا واستقبل البيت ثم قال: اللهم إن عبدالله بن المؤمل حدثني عن أبي الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ماء زمزم لما شرب له» اللهم إني أشربه لعطش يوم القيامة فشرب.

وقال أبو بكر محمد بن جعفر سمعت ابن خزيمة وسئل من أين أوتيت هذا العلم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له» وإني لما شربت ماء زمزم سألت الله علما نافعا.

وقال أبو بكربن العربي: ولقد كنت بمكة مقيما في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكنت أشرب ماء زمزم كثيرا، وكلما شربته نويت به العلم والإيمان، حتى فتح الله لي بركته في المقدار الذي يسره لي من العلم، ونسيت أن أشربه للعمل، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله علي فيهما، ولم يقدر، فكان ميلي إلى العلم أكثر منه إلى العمل، ونسأل الله الحفظ والتوفيق برحمته.

وقال ابن حجر: واشتهر عن الشافعي الإمام أنه شرب ماء زمزم للرمي، فكان يصيب من كل عشرة تسعة.

ثم قال الحافظ ابن حجر: وأنا شربته مرة وسألت الله ـ وأنا حينئذ في بداية طلب الحديث ـ أن يرزقني حالة الذهبي في حفظ الحديث، ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة، وأنا أجد من نفسي المزيد على تلك المرتبة، فسألته رتبة أعلى منها، فأرجو الله أن أنال ذلك.

قال الحميدي: كنا عند سفيان بن عيينة فحدثنا بحديث «ماء زمزم لما شرب له» فقام رجل من المجلس ثم عاد فقال: يا أبا محمد أليس الحديث الذي قد حدثتنا في زمزم صحيحا؟ فقال: بلى، فقال الرجل: فإني شربت الآن دلوا من زمزم على أن تحدثني بمائة حديث فقال سفيان: اقعد. فقعد، فحدثه بمائة حديث.

في يوم عرفة

قال ابن المبارك: جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة، وهو جاث على ركبتيه، وعيناه تهملان، فالتفت إلي، فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالا؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم.

ـ وروي عن الفضيل بن عياض أنه نظر إلى نشيج الناس وبكائهم عشية عرفة، فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوه دانقا ـ يعني: سدس درهم ـ أكان يردهم؟ قالوا: لا. قال: والله، للمغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدانق.

ورأى سالم بن عبدالله بن عمر سائلا يسأل الناس في عرفة فقال: يا عاجز أفي هذا اليوم تسأل غير الله تعالى؟.

ووقف مطرف بن عبدالله وبكر المزني بعرفة، فقال أحدهما: اللهم لا ترد أهل الموقف من أجلي.

وقال الآخر: ما أشرفه من موقف وأرجاه لإله لولا أني فيهم.

ووقف الفضيل بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة قد حال البكاء بينه وبين الدعاء فلما كادت الشمس أن تغرب رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوءتاه منك وإن عفوت.

وقال ابن القيم رحمه الله في وصف يوم عرفة وحال الحجيج فيه شعر جميل في ميميته المشهورة:

وراحوا إلى التعريف يرجون رحمة
ومغفرة ممن يجود ويكرم
فلله ذاك الموقف الأعظم الذي
كموقف يوم العرض بل ذاك أعظم
ويدنو به الجبار جل جلاله
يباهي بهم أملاكه فهو أكرم
يقول عبادي قد أتوني محبة
وإني بهم بر أجود وأرحم
فأشهدكم أني غفرت ذنوبهم
وأعطيتهم ما أملوه وأنعم
فبشراكم يا أهل ذا الموقف الذي
به يغفر الله الذنوب ويرحم
فكم من عتيق فيه كمل عتقه
وآخر يستسعى وربك أرحم
وما رؤى الشيطان أغيظ في الورى
وأحقر منه عندها وهو ألأم
وذاك لأمر قد رآه فغاظه
فأقبل يحثو الترب غيظا ويلطم
لما عاينت عيناه من رحمة أتت
ومغفرة من عند ذي العرش تقسم
بنى ما بنى حتى إذا ظن أنه
تمكن من بنيانه فهو محكم
أتى الله بنيانا له من أساسه
فخر عليه ساقطا يتهدم
وكم قدر ما يعلو البناء وينتهي
إذا كان يبنيه وذو العرش يهدم